وتكلم عبد المطلب فضج الحفل بالتصفيق الشديد ! !

ولقد كان مظهره فى الجامعة المصرية يوم ألقى قصيدته العلوية سنة ١٩١٩ رائعاً جميلا فقد ركب ناقته ومضى ينشد طويلته متشبهاً بأجداده البادين، وكان الحفل الحاشد مأخوذاً بما يرى ويسمع، فمن تدفق فى البيان وطرافة فى الموضوع، إلى غرابة فى المنظر وبعد فى الاتجاه، ولقد طال نفسه فيها حتى جاوزت قصيدته أربعمائة بيت تقرؤها فى متعة وارتياح فلا تجد غير القوى الرصين ! !

أما أخلاقه الرفيعة فقد كانت دينية مثالية تبحث عنها فلا تجدها عند الذين يتظاهرون بالورع ويتشدقون بالعبادة وليسوا من ذلك فى قليل أو كثير، فعبد المطلب قد درس التعاليم الإسلامية ثم طبقها على نفسه واتخذها منهجاً يسير عليه. فكان عف اللسان، صلب العقيدة، راسخ الإيمان طاهر الذيل، متمسكا بتقاليد قومه، راغباً فى الزهد الصوفى الذى ورثه عن أبيه، وقد اشترك فى جمعيات إسلامية كثيرة. كالمواساة الإسلامية والشبان والهداية، والمحافظة على القرآن الكريم باذلا لها ما يستطيع بذله من مال وعتاد

قال شيخنا الأستاذ الاسكندرى « وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة وقوادها وعلمائها وشعرائها فلا يكاد يسمع بحديث مزر عليها أو غاض من كرامتها حتى يقضب لها غضبة الليث الهصور وينبرى له تزييفاً وتهجيناً نظماً وكتابة وخطابة »

هذا وقد انتدب فى سنة ١٩٢٨ للتدريس فى تخصص اللغة العربية بالأزهر الشريف، وظل به حتى لقى ربه راضياً مرضياً عنه بما قدم لدينه وأمته من العمل الصالح، وكان قد أحيل إلى المعاش من دار العلوم قبل وفاته بشهر واحد. وحين جاءه اليقين خرجت الدنيا تشيعه فى حفل مهيب التقى فيه أصدقاؤه بتلامذته المديدين باكين منتحبين، ورأى الناس الوفاء للأدب والعلم متمثلاً حول نعشه فى جمع حاشد وصفه الهراوى فقال :

لقد مشت الدنيا وراءك خشعاً
وما كنت فى سلطان حل ولا عقد
ألا إنها كانت قلوباً تداعت
على الود تمشى حول نعشك فى حشد

محمد رجب البيومى

تعقيبات

بين العامية والعربية :

تقدم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عضو المجمع اللغوى وعميد معهد التربية إلى المجمع ببحث مطول عن موقف اللغة العامية من العربية الفصحى عرض فيه لخصائص العامية وما لها من الآثار الجميلة فى معارض الكلام كالزجل والموشحات والقوما والدوبيت، وتناول ما كان لها من تطور فى الشرق وفى بلاد الأندلس ثم فى باقى الجهات الأخرى، وانتهى من ذلك إلى القول بوجوب دراسة العامية والاهتمام بها ووضع الوسائل للتقريب بينها وبين الفصحى حتى تلتقى لغة الكتابة ولغة الكلام.

وليست هذه الدعوة التى يرتفع بها صوت الأستاذ أبو حديد اليوم بالأمر الجديد، ولعلها دعوة قديمة بالية ارتفع بها الصوت فى مصر منذ أكثر من خمسين عاماً، وثارت فيها معاجة الكلام واشتجرت حولها أقلام الباحثين، وقد استطاع أساتذة ذلك الجيل أن يصفوا حسابها وأن يفرغوا من تفنيدها وأن يأتوا فى ذلك بما لا مزيد عليه.

كان رأس تلك الدعوة رجل انجليزى موظف فى مصر يدعى « ويلكوكس »، وكان هذا الرجل داهية، درس اللغة العربية، واللغة العامية أيضاً وكان عمله الأصيل فى شئون الرى والصرف، ولكنه أثار بين المصريين الدعوة إلى العامية بحجة أنها لغة الكلام، وأنها قريبة من الأفهام، ومن العجيب أن ذلك الرجل أنشأ مجلة بمذاك سماها « الأزهر »، وكان يصطنع الغيرة على العربية وعلى الاسلام وعلى المصريين فيما يدعو إليه، وتحت ستار تلك الغيرة كان يحاول أن يسدد الطعنة النجلاء إلى العربية وإلى الاسلام وإلى المصريين.

وبيننا كثيرون يذكرون أن الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا كان له مجال فى معرض تلك الدعوة، فقد كتب مقالين فى « الجريدة » أيام كان يقوم على تحريرها يدعو فيهما إلى تعمير

اللغة » ، فانبرى كثير من الباحثين لمناقشة دعوته وتفنيد حجته ، وكأن الرجل قد اقتنع بما بدا له فى معرض المناقشة إذ سكت عن تلك الدعوة إلى اليوم ، بل لقد وقف بعد ذلك يدعو إلى الفصحى ويحبذها فى عدة مناسبات ...

وأنا فى الواقع لا أدرى ماذا يريد الأستاذ أبو حديد بالتقريب بين العامية والعربية ، وماذا يقصد بأن « تلتقى لغة الكتابة ولغة الكلام » ؟ !

إن موضوع القضية باطل ، لأننا إذ نقول العربية فانا نقصد إلى لغة موحدة الألفاظ والدلالات عند جميع أبناء العربية والذين ينطقون العربية . أما العامية فانها تتوزع فى الألسن إلى لهجات عديدة بل إلى لغات تختلف فيها الألفاظ ودلالاتها إلى حد كبير ، ليس فى الأقطار العربية فحسب ، بل فى القطر الواحد منها ، وأظن الأستاذ يعلم الفرق الكبير بين العامية فى شمال مصر والعامية فى جنوبها ، فأية عامية من هذه كلها يريد أن يتخذها أساساً تلتقى به لغة الكلام مع لغة الكتابة .

فى جميع أمم الدنيا لغة للكلام ولغة للكتابة ، ويوم أن كانت العربية فى أهلها فطرة وسجية كانت هناك لغة للكلام ولغة للكتابة . إنه رأى غريب مريب ، يعود فيرفع رأسه بعد أن قطعه أساتذة الجيل السابق . والعجيب أن يحفل المجمع بهذا الرأى الذى لا طائل تحته وأن يأمر بطبع هذا الكلام لبحثه وإبداء الرأى فيه ، كأن هذا المجمع قد فرغ من أداء واجبه نحو العربية فما بقى عليه إلا العناية بالعامية . ومن يدرى لعل الشيوخ الأجلاء يقترحون أن يكون اسم مجمعهم « مجمع اللغة العربية والعامية »! !

بشار وروزفلت وزكي مبارك :

يبدو صديقنا الدكتور زكى مبارك فى كتاباته التى يكتبها فى هذه الأيام على نهج جديد ، وطريق كثير الدروب والتعاريج ، فهو يكتب كما يتحدث ، وهو لا يرتبط مع القارىء بوحدة الموضوع ولكنه يستطرد ثم يستطرد ، فيخرج من كلام إلى كلام ، ويورد كل ما يبدو من الروايات والذكريات ، وهو فى هذا يعتمد على الذاكرة أكثر مما يعتمد على المراجعة ، والذاكرة مهما كانت قوة وحفظاً لا تصدق صاحبها فى كل الأحيان .

وطريقة تشقيق الكلام والاستطراد هى الطريقة التى ابتدعها وآثرها كاتب العربية الكبير شيخنا أبو عثمان الجاحظ ، وليس من قصدى أن أستطرد بالقارىء إلى الحديث عن هذه الطريقة ، ولكنى أريد هنا أن أشير إلى مقال قرأته للدكتور يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضى فى جريدة « البلاغ » فوقفت فيه على روايتين جديرتين بالتصحيح تقديراً للأدب وإكراماً للتاريخ .

أما الأولى فقد قال الدكتور وهو يتحدث عن شهر كانون : « وكان الشاعر بشار بن برد متهماً بالزندقة ، فأراد أحد الصوفية أن يحبب إليه الإيمان فقال : إن المؤمن الصادق فى الجنة غرفة عرضها ألف ميل وطولها ألف فرسخ ، فقال بشار : هى إذن أبرد من كانون الثانى » ، وليست الرواية هكذا ، ولكنهم قالوا : « ومر بشار بقاص فسمعه يقول : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة سمكه ألف فرسخ فى مثلها ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى أمثالها : فالتفت بشار إلى قائده وقال : بئست والله هذه الدار فى شهر كانون الثانى » ... وإذن فلم يكن هناك صوفى يعظ بشاراً بهذا الكلام الملفق ، وقد كان على الدكتور ، وهو مؤلف فى التصوف ، أن يتحرى الرواية من هذه الناحية فضلا عن الناحية الأدبية ...

هذه واحدة ...

أما الثانية فقد قال الدكتور وهو يتحدث عن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد : « وكانت للشيخ على وقفة جريئة فى وجه الرئيس روزفلت جد روزفلت الذى كان رئيس جمهوريات الولايات المتحدة قبل سنين ، وخلاصة القصة أن روزفلت زار أسوان وأظهر عجبه من أن يتمجد المصريون بقصر أنس الوجود . فثار شوقى الشاعر فنظم القصائد وفيها يقول :

شاب من حولها الزمان وشابت
وشبـــاب الفنون ما زال غضا

وثار الشيخ على يوسف فشواه بمقالة فى جريده المؤيد ... »

وليست القصة هكذا أيضا ، ولم يكن الأمر أمر أنس الوجود ، وإنما القصة أن روزفلت زار السودان وخطب فى أحد المعاهد المسيحية هناك فانهم المصريين بالتعصب الدينى ، وأشاد بأيادى الانجليز على تقدم مصر ، وعجب للمصريين الذين يكفرون بتلك الأيادى والنعم ، ثم دعا المصريين إلى ترك التشدق بالقديم البالى والنظر إلى إصلاح حالهم الراهنة ، فكان أن غضب المصريون

لأنفسهم ، وثاروا عليه ثورة عنيفة فى دفع تلك الافتراءات التى كان روزفلت يردد فيها كلام المعتمد البريطانى ، وكان الشيخ على يوسف ممن حركوا القلم فى هذه الثورة ، وكان شوقى يومذاك موظفاً ولكنه خرج عن دائرة « الوظف » كما يقول ونظم قصيدته الضادية فى تمجيد حضارة الشعب الذى كفر به روزفلت وقدم لتلك القصيدة بمقدمة قال فيها : « قمت أيها الضيف العظيم فى السودان خطيباً ، فأنصفت العصر ، وانتقصت مصر ، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون : كيف خالف الرئيس سنة الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله ، فطارد الشعور وهو يهب ، والوجدان وهو يشب ، والحياة وهى تدب ؛ فى هذا الشعب ، ومن حرمة العواطف السامية ، ألا تطارد كأنها وحوش ضارية » . إلى آخر تلك المقدمة التى تعتبر آية من آيات شوقى الخالدة .

وثار حافظ إبراهيم أيضا ، وتناول روزفلت بقصيدة من قصائده الوطنية النارية ، ولكن هذه القصيدة لا توجد فى ديوانه الذى طبعته الوزارة ، وقد سبق أن نشرتها فى « الرسالة » مع بعض القصائد والمقطوعات المنسية لحافظ إبراهيم ...

هذا أمر يهمنا :

تنشر جريدة « المصرى » سلسلة من التحقيقات الصحفية عن الحالة فى بلاد المغرب الأقصى قام بها الأستاذ إبراهيم موسى الصحفى المعروف ، وقد عرض الأستاذ فى كتاباته إلى الحديث عن الحياة الثقافية وما يفرض عليها من الحجر الاستعمارى فى تلك البلاد فقال : « ووجدت مع أحد الزعماء كتباً مصرية قديمة من النوع المستعمل ، وكانت عليها كتابة تدل على أنها لرجل آخر فى طنجة من ثلاث سنوات ، وكان الزعيم المغربى شديد الفرح بها ، وقد دهشت حين علمت أن سبب فرحه هو أنه هربها معه من طنجة لأن الفرنسيين لا يسمحون بدخول الكتب العربية إلى المغرب إلا إذا كانت توافق مزاجهم ، وقليلا ما يجدون ما يلائم هذا المزاج الرقيق ... »

ثم قال الكاتب : « وقال لى هذا الزعيم إنك لا تتصور مقدار العذاب الذى يعيش فيه رجال الصحافة والعلم فى هذه البلاد ، إذ لا ينشر كتاب ولا صحيفة بدون رقابة ، وكثيراً ما تخرج الصحف ونصف صفحاتها بيضاء وقد كتب عليها — حذفته الرقابة — بل لا يمكن أن يقبل كتاب فى مطبعة قبل تسليم النسخة الأصلية إلى الرقابة ، وحدث مرة أن الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله المحرر بجريدة العلم وضع كتابا فى الجغرافيا فبقيت النسخة الخطية فى الرقابة سنتين — نعم سنتين — بقصد التعطيل ، ثم أفرج عن الكتاب بعد تعديلات ومساع كثيرة ، ومن أمثلة هذه التعديلات أنه كان فى الكتاب فصل اسمه « المغرب فى عهد الاستقلال » ، ويقصد الكاتب بذلك العهد السابق للعهد الفرنسى ، فأصرت الرقابة على تغيير العنوان إلى — المغرب قبل الحماية — ولما رضى المؤلف بذلك سمحوا بطبع الكتاب ... »

قلت : وهذه حال تهمنا ، فمن الواجب على رجال الأدب والعلم وحملة الأقلام فى مصر وفى جميع العالم العربى أن يفزعوا لها ، وأن يقفوا منها موقفاً حازماً لأنها مصادرة للحياة الفكرية . ومصادرة للكتب العربية ، وجميع الآثار التى تخرجها حتى لا تجد طريقها إلى تلك البلاد الشقيقة ...

نعم ، إن من الواجب على الجامعة العربية أن تفزع لهذه المسألة ضمن ما تعنى به من الحالة القائمة فى الغرب الأقصى ، وضمن ما تعنى به من الشئون الثقافية العامة فى البلاد العربية ، ولكن علينا نحن أن نفزع لهذه المسألة بالذات ، لأنها مسألتنا ، ومسألة الثقافة العربية ، والأمر فيها يسير علينا إذا حزمنا لها الرأى والأمر ، وذلك بأن نعمد إلى مقاطعة الكتب الفرنسية فى جميع الأقطار العربية ما دامت فرنسا تقصد إلى منع الكتاب العربى من الدخول إلى أى قطر من الأقطار التى تقع تحت نفوذها ، فإذا عمدنا إلى هذا صادقين فستكون فرنسا هى الخاسرة . وستضطر اضطراراً إلى النزوع عن تلك الخطة الشنعاء .

فهل أنتم يا أبناء الثقافة العربية ويا حملة الأقلام فاعلون ، غضباً لكرامتكم ورعاية لمصلحتكم ؟ ؟

« الحامى »